دواعي ميلاد مبحث أخلاقيات المناقشة

سعيد السلماني

مقالات
فلسفيــة

5 مارس 2022

جميع الحقوق محفوظة 2022

بسم الله الرحمن الرحيم

دواعي ميلاد مبحث أخلاقيات المناقشة

سعيد السلماني

باحث في العلوم
الاجتماعية /المغرب.

مـع الانتقـال إلى "العصـور الحديثـة" وبدايـة تراجـع الهيمنـة المطلقـة للديـن، وبـروز العقـل باعتبـاره مصـدرًا وحيـدًا للحـقّ والخـير والعـدل والفضيلـة؛ فـإنّ الإشـكال النظـريّ المرتبـط بصـيرورة القانـون وكينونـة الواجـب وتعارضهـما الضمنـي سـيجد حلّـه في بنـاء صروح الأخـلاق العقلانيـة الحديثـة وخاصـة فلسـفة الأخـلاق الكانطيـة.

لكـنّ نقـدًا أساسـيًا سـيوجّه إلى الأخـلاق الكانطيـة -أخـلاق الواجـب الصـوريّ والأمـر القطعـيّ، وبالتّـالي، تـبرز نزعـات عقليـة واقعيـة ونفعيـة وأداتيـة تلتصـق بالواقـع والمجتمـع والفـرد العينـيّ وترفـض مبـدأ المتعـالي والمفـارق. كـما أنّ العلـوم ذاتهـا تطـورت بشـكل ألقـى بظـلال مـن "النسـبية" و"اللاحتـمال" عـلى كل يقـين عقـليّ أو طبيعـيّ ممكـن. ومـن ثـم، دخـل العـالم بالكامـل عهـد نـزع كلّ طابـع سـحريّ عـن وقائعـه وظاهراتـه.

وقعـت حربـان مدمّرتـان كانـت وراءهـما نزعـات إيديولوجيـة ضربـت في العمـق مثُـلاً وقيـمًا كان يُعتقـد أنهـا -باسـم الحريـة والعقـل والتقـدم- تشـكّل "دينًـا" جديـدًا وبديـلاً للإنسـانية، فسـادَ الإحسـاس بفقـدان المعنـى والخـراب الروحـي والعبثيـة واللاجـدوى. فـأيّ أخـلاق يمكـن أن تنبثـق مـن "أرض اليبـاب"[1]، وأيـة قاعـدة أخلاقيـة جديـدة ومتجـدّدة يمكـن التأسـيس انطلاقًـا منهـا؟ بـل هـل هـذه القاعـدة موجـودة أصـلاً وهـذا التأسـيس ممكـن تصـوّره وحدوثـه؟

سـنحاول الإجابـة عـن هـذه الأسـئلة مـن خـلال الخطاطـة الآتيـة: العوامـل والدواعي التـي أسسـت لمبحـث أخلاقيـات المناقشـة، ثـم المعايـير والمرتكـزات ونختـم بخلاصة مركـزة لمـا حُلِّـل ونوقش.

(١) هذه قصيدة مشهورة للشاعر الإنكليزي إليوت.

دواعي ميلاد مبحث أخلاقيات المناقشة:

في هذا السياق المأساوي الممكن التأريخ له انطلاقًا من إعلان نيتشه "موت الإله" إلى إعلان عموم البنيويين "موت الإنسان" إلى إعلان موت "الحكايات الكبيرة" (جان-فرانسوا ليوتارد)، برزت نزعتان فيما يخصّ فلسفة الأخلاق المعاصرة: نزعة من يستهجن أصلاً طرح السؤال في هذا الصدد منكفئًا على الشذري والمتعدد والمختلف، ويقف بالتالي على حافة العدمية؛ ونزعة من يريد إعادة البناء لقيم التنوير الأصلية: الحرية والعقل والتقدم.

بهذا المعنى يغدو النقاش العملي أداة ذات مكانة جوهرية في سن المعايير وتبريرها؛ لأن التبرير عملية بيذاتية تداولية غير منفصلة عن الاجتماع؛ كما أنه وسيلة ملائمة لتأسيس تصور مجتمع حداثي في عصرنا هذا، عصر تراجع دور التقليد والعادات في شد أواصر العلاقات الاجتماعية؛ عصر تعدد المعتقدات والأعراف والتجمعات داخل نفس المجتمع؛ عصر تصاعد النزاعات الدولية مما يهدد الاستقرار والسلم العالميين؛ عصر تصاعد المصالح التجارية والاقتصادية؛ عصر الاستغلال المفرط للبيئة وتفاقم الاحتباس الحراري الكوني.

من هنا تأتي أهمية أخلاقيات النقاش والحوار؛ فمعاييرهما هي ما قد يكفل التوازن الدولي ويدعم تنمية المجتمعات، ذاك هو رهان أخلاقيات النقاش شريطة إجماع الكل على قواعد ومعايير وضوابط يلتزم بها المتحاورون في إطار فعل تواصلي.

هذا وقد دعم هابرماس أطروحته هذه بالنظرية الحجاجية؛ فاستمد منها القواعد الصورية التي يجب على المتحاورين الالتزام بها قصد تحقيق الإجماع أو اتفاق العقول، هذا، ويمكن إجمال دواعي ميلاد هذا المبحث في الآتي:

أولًا: الأزمة الإيكولوجية (آبل).

ثانيًا: اتساع الهوة بين الشمال والجنوب (الفقر).

ثالثًا: التحكمات الصناعية والتكنولوجيا المختلفة.

رابعًا تأسيس الأخلاق تأسيسًا عقلانيًا.

خامسًا: أزمة العلم والتقنية.

سابعًا: التعددية الثقافية وما تطرحه من تحديات أمام التضامن الاجتماعي[1].

معايير أخلاقيات المناقشة:

إنّ "أخلاق المناقشة" في المنظور الذي أسس له آبل وهابرماس تقدّم إجراءات ومساطير كونية تفرض على المتناقشين -منذ البدء وضرورة- الالتزام بقيم كونية شاملة تبرر الفعل الأخلاقي في حدّ ذاته. إن المهمّ ليس "مضمون" الفعل الأخلاقي ولكن صلاحيته sa validité المستندة بدورها إلى معايير أربعة[2]:

• **المعقولية intelligibilité**، أي التخاطب بجمل مركبة تركيبًا صحيحًا ومحترمة لقواعد اللغة المستعملة ومستوفية لشروطها.

(١) محمد عبد السلام الأشهب، **أخلاقيات المناقشة**، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، ط ١، ٢٠١٣، ص٢٣-٢٧.

(٢) عثمان أشقرا، **"أخلاق المناقشة"** وإعادة بناء التنوير، http://www.alawan.org.

• **الحقيقة vérité**، أي وصف حالة واقعة موجودة وليست مستوحاة من الخيال.

• **الصواب justesse**، أي القدرة على تقديم أحكام نقدية دقيقة ومشروعة حول عالم التواصل الاجتماعي باعتباره مجموع علاقات موضوعية غير مشخصنة ولها شرعيتها الذاتية.

• **الصدقية sincérité**، أي التعبير عن نوايا محددة وبطريقة صادقة بعيدة عن التضليل والكذب والحذلقة الكلامية وبدون سفسطة.

كما أنه "وحدها المعايير القابلة؛ لأن تلقى قبول كل المشاركين في مناقشة عملية يمكنها ادعاء الصلاحية"، وهذا هو المبدأ "ميم" [المناقشة] يضاف إليه المبدأ "كاف" [الكونية] الذي ينص على أن تتوفر هذه المعايير على مبدأ الكونية بحيث تحظى بموافقة الجميع دون ضغط أو إكراه وتسهل عملية تحمل النتائج والتأثيرات الناجمة عنه من طرف جميع الأشخاص المعنيين.

وتمثل هذه المبادئ والمعايير دون شك "حالة مثالية للكلام" يرى فيها آبل قاعدة تأسيسية لنوع من التداولية الترنسندنتالية بحيث إن "أخلاق المناقشة" تفرض شرطيًا على الأفراد بمجرد انخراطهم في مناقشة تقوم على أساس المبادئ والمعايير أعلاه. وهذا ما يمثل نوعا من الفلسفة الأخلاقية المفارقة المكتفية بذاتها. وعليه يكون عمل الفيلسوف في هذا المنظور التنبيه على التناقضات الكلامية الإنشائية التي تعيق ممارسة العقل الحجاجي الكوني لدوره في مجالات التواصل البشري. وهذا ما ينتقده هابرماس الذي يرى أنّ دور الفيلسوف هو وصف المسار الأخلاقي الذي ينشأ ويتكوّن وليس تقريره وفرضه. هذا المسار العينيّ الذي لا يمكن أن يكون إلا نتاج فاعلين عينيين. ومن هنا تطويره -سوسيولوجيا- لنظرية الفعل التواصلي.

مرتكزات المعايير الأخلاقية:

إن السؤال الأساسي لتلك الاخلاقيات هو على أي مرتكز يمكن تأسيس المعايير والأوامر؟

المعايير الاخلاقية هي تلك التي يقبلها أعضاء الجماعة التواصلية المعنيون بها بحيث تراعي مصالحهم المشتركة ويكون لها طابع كوني. وبانفتاحه على النظريات الحجاجية، كان هابرماس يهدف الى تأسيس مبدأ استدلالي في أخلاقيات النقاش، يشبه ذلك الموجود في العلوم الحقة. ومن القواعد التي اقترحها هابرماس هي كالآتي[1]:

١- لكل فرد قادر على الكلام والفعل نصيب كامل في النقاش.

٢- لكل الحق في إثارة أي إشكال أو اعتراض على أي تأكيد كيفما كان، ويندرج ضمن هذا الحق حق الاعتقاد في آراء ما والتعبير عنها.

٣- لا يحق منع أي كان من المتحاورين من النقاش ولا استعمال أسلوب الإكراه عليه .

تفترض جميع هذه القواعد المشاركة والندية بين المتحاورين: لكل الحق في أن يدلي بدلوه ويفصح عما عنده دون تضييق أو مضايقة قصد تحقيق الإجماع.

إضافة إلى القواعد السالفة، زاد قاعدتين أخريين في صيغة افتراضيين مفادهما ان الدعاوى المعيارية للصلاحية تتضمن معنى معرفيًا ويجوز التعامل معها بوصفها دعاوى للحقيقة؛ لذا ضرورة الدخول في نقاش حقيقي لتأسيس المعايير والاوامر

(١) أفاية محمد نورالدين، **الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة**، الدار البيضاء، ١٩٩١.

اعتمادًا على العقل المتواصل المتحاور وليس على العقل الفردي، وتعني صفة المعرفية أن الشيء قابل للقبول أو الرفض خلال عملية الحوار التي هي أخذ ورد.

إن التركيز في أخلاقيات النقاش على أهمية الحجة والحجج في صياغة المعايير الأخلاقية والاجتماعية دفع البعض إلى القول بأن أخلاقيات النقاش ما هي، في حقيقة أمرها، سوى تداولية فلسفية صيغت على شكل منعطف لساني تداولي أساسه التشديد على أهمية القوة غير القسرية للحجة الأقوى.

يبدو أن أخلاقيات النقاش عند هابرماس تهتم بالمعايير، معايير الفعل التواصلي، وهو أمر لن يتم، بالنسبة لهابرماس إلا في إطار الدولة الدستورية، حيث يكون بإمكان المواطنين المشاركين في سياسة تشاورية إن يصلوا إلى تأسيس معايير تحظى باحترام الجميع و قبولهم، فالمعايير ليست قرارات شخصية، بل هي مؤسسة على إمكانية تبريرها تبريرًا عقلانيًا اعتمادًا على عملية حوارية حجاجية؛ لذا فخلافًا للتمييز اللفظي الشهير بين العقل الخالص والعقل العملي، يعمد هابرماس إلى دمجهما في بعضهما؛ أي أن صلاحية المعايير الأخلاقية يحكمها تصور عملي ذو صلة بممارسة النقاش والحجاج، أي تقوم في الواقع على الاعتراف بالمعيار في إطار نقاش يعترف ضمنيًا به وتقبله جميع أطراف الحوار ثم إن ما يهم هابرماس هو سن معايير كونية قادرة على حل المشكلات التي فيها تتخبط البشرية وتعمق ثقافة السلام بين الامم و الشعوب. وعليه، فإن أخلاقيات النقاش، هي في العمق، أخلاق المسؤولية، بمعنى؛ أن الجميع مطالب بأن يتحمل مسؤوليته التاريخية في وضعية عالمية لم تعهدها البشرية من قبل كما لا يمكن تصور نتائجها على الأجيال المقبلة.

نخلص إلى القول بأن مبحث أخلاقيات المناقشة عند هابرماس يعتبر من بين أهم المباحث الذي عمل على تطويره في فلسفته التواصلية، وذلك بالاستناد إلى عدة مرجعيات أبرزها: الفلسفة الكانطية، والليبرالية السياسية عند رولز، لكن هذا المبحث الذي اشتغل عليه هابرماس لم يكن يتعلق فقط بما هو أخلاقي، بل

بما هو سياسي أيضًا، إلى حد اعتباره من قبل البعض على أنه مبحث سياسي صرف، لكن هابرماس نفى هذا الاعتبار في كتابه "الحق والديمقراطية بين الوقائع والمعايير" حيث بين حدود كل من نظرية "أخلاقيات المناقشة" وكذا نظرية "الديمقراطية التشاورية".

واذا كانت فترة الثمانينات من القرن المنصرم قد تميزت باهتمام هابرماس بالفلسفة الأخلاقية لتطوير نظرية الفعل التواصلي في إطار مبحث أخلاقيات المناقشة؛ فإن فترة التسعينات وما بعدها هيمن فيها حضور الفلسفة السياسية في اهتماماته الفلسفية، ويعد كتاب "الحق والديموقراطية بين المعايير والوقائع" أهم عمل فلسفي له في هذه المرحلة، فقد اعتبره نقاده بمثابة ملحق سياسي لنظرية الفعل التواصلي؛ لأنه سيطور فيه نظريته استنادًا إلى مكتسبات أخلاقيات المناقشة ومنطلقاتها، وتمثل فكرة الديموقراطية التشاورية أهم فكرة أبدعها هابرماس في هذا العمل.

المراجع المعتمدة:

- الأشهب محمد عبد السلام، **أخلاقيات المناقشة في فلسفة التواصل لهبرماس**، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٣.

- أشقرا عثمان، **أخلاق المناقشة وإعادة بناء التنوير**، موقع النشر:

http://www.alawan.org

- أفاية محمد نورالدين، **الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة، الدارالبيضاء، ١٩٩١.**